© ٢٠١٦ مركز بحوث القرآن
جامعة ملايا، ماليزيا

قرآنيكا، مجلة عالمية لبحوث القرآن
المجلد ٨، العدد (٢)، ديسمبر ٢٠١٦م، ص١٢٩-١٥٨

العقليَّة الغائيَّة في القرآن والسُّنة وأثرها في الشُّهود الحضاري للأمَّة(*)

د. محروس محمد محروس بسيوني [١]

(*Teleological Methodology in the Quran and Sunnah and its Impact on Nation's Civilization*)

Mahrous M. Basyouni

ABSTRACT

Islam has always been concern with generating and finding the causes and purposes behind any actions or movements, because of its influence on human development and civilization and which require clarity of missions and goals. Islam also draws attention concerning consequences of the absence of such approach through clarifying its effect on the revival of societies. By the revelation of the Holy Quran, methodology of thinking enriched and significance of purposeful conscious intellect improved. Therefore, awareness is raised regarding absence, falsifying or restricting its talents and capabilities. Furthermore, Islam tends to lead human intellect to the right path throughout specific prospectives to avoid barbarism and misguidance, including all other obstacles preventing it from inspiring the revival of Islamic civilization. The importance of this research is due to being a substantial phase in the presence of civilization in Islamic nation throughout deriving principles from old texts and transcripts. The research concludes that the existence of civilization in the nation is only attainable through returning Muslim intellect to its authenticity and significance as it is essential to reject subordination and randomness, as well as through spreading the culture of purpose 'المقاصدية' among Muslim nation.

Keywords: *Intellect, Teleological Methodology, Society civilization, Obstacles, Nation.*

(*) This article was submitted on: 08/09/2016 and accepted for publication on: 14/01/2016.

[١] قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، mahrous.mohamed@qu.edu.qa

ملخص

حرص الإسلام على صياغة العقلية الغائية؛ لما لها من أثر في صناعة الحضارة الإنسانية ورقي البشرية. كما حذَّر من تبعات غياب هذه العقلية وبين أثر ذلك على نهضة المجتمعات. فمن خلال القرآن والسنة تم التأكيد على إعمال الفكر. وزادت قيمة العقل الواعي الهادف، وتم الترهيب من تغييب الوعي أو تزييفه، أو تعطيل ملكاته وقدراته. كما تم وضع العقل على الطريق الصحيح من خلال منطلقات يعمل العقل من خلالها، ليتفادى الهمجية والضلال...، وغير ذلك من المعوقات التي تحول دون قيام العقل بدوره كمحرك للنهضة في مسيرة الحضارة الإسلامية و. وترجع أهمية البحث في كونه خطوة على طريق العودة إلى لشهود الحضاري للأمة الإسلامية من خلال منهج استنباطي للنصوص والآثار. ومما خلص إليه البحث أن الشهود الحضاري لن يتحقق للأمة إلا بعودة العقلية المسلمة إلى أصالتها وجديتها، ونفي التبعية والعشوائية عنها، ونشر الثقافة المقاصدية بين أبناء الأمة المسلمة.

كلمات دالَّة: عقل، غائية، شهود حضاري، معوقات، أمة.

إن الاهتمام بالجانب الفكري للأمة سبيلٌ فعال لعودة الروح الفاعلة عند أبنائها، وطريقٌ ممهدٌ لإزاحة العجز والضعف، وإطلاقٌ للقدرات الكامنة للأمة كلها. ومما لا شك فيه أن العقل المسلم عقلٌ غائيٌ لا يعرف العشوائية في العمل، ولا التخبط في السعي، وقد تواردت النصوص الشرعية التي عملت على بناء العقلية المسلمة، وبثت فيها هذا المعنى العظيم. بداية من الحركة الصغيرة من سلوكيات المسلم وحتى الغاية الكبرى في الحياة للإنسان، وهي: العبودية لله تعالى.

إن من أخطر المشكلات التي يعاني منها العمل الإسلامي اليوم في مجالي الفكر والدعوة، تتمثل في غياب الأهداف والمقاصد الواضحة، والذي تسبب في ضعفها وربما ضياع حقيقتها..، ولقد عمد القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة على بناء هذه العقلية الغائية وبيان منطلقاتها؛ لتحقق أهدافها في الحياة، وحذَّرت من العقبات التي تقف حائلاً دون الوصول إلى هذه الغايات. وبالتزام منهج الإسلام في البناء

الفكري للأمة نشأت حضارة وارفة الظلال، وازدهرت علوم كثيرة نبتت من نتاج هذه العقلية الغائية. فلم يُبذل وقتٌ ولا جهدٌ إلا لغاية سامية ارتفعت بالفرد وارتقت بالأمة على السواء، ثم تعاقبت قرون على الأمة، فقدت فيها فاعليتها وتأثيرها، وتأخرت دولها، وتجرأ عليها من كان بالأمس يطلب ودَّها، وكان من أسباب هذا التأخُّر الخللُ في المنهجية الفكرية للأمة، والذي عصف بالأمة. فحوَّلها عن مسارها، وعطَّل قدراتها، وباتت الأمة في أمسِّ الحاجة لمن ينير لها الطريق، لتتلمس طريق العودة إلى الصراط المستقيم، الذي فيه رشدها، وبه رفعتها وريادتها، ولن يجدي الأمة بأي حال من الأحوال تلمس الطريق الموصِّل للخيريَّة والنهضة في فلسفات غربية أو شرقية، أو تلفيق بين ما يدعو إليه دينها وما تدعو إليه هذه الفلسفات المغايرة له، بطريقة مشوهة لا ملامح لها، ولا ثوابت تركن إليها، وقد أيقن كل من يعاين حال الأمة الحاضر وترنحها بين الفلسفات والمناهج المستوردة، مدى الفشل الذريع الذي مُنِيّتْ به الأمة – ولا زالت– تحت هذه الدعاوى المضلِّلة، التي لا تريد لهذه الأمة رفعةً، ولا لأبنائها تقدمًا.

إن الأمة الإسلامية لن تتمكن من الشهود الحضاري ما لم تستوعب هذا الدرس المهم من دروس الواقع، وتستفيد من نتائج التجارب التي طُبِّقت عليها في عقود من الزمن، فلم تزدد بها الأمة إلا تأخرًا عن سبيل نهضتها، وبعدًا عن واقعها، ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث. حيث يُعْنَى بإعادة الفاعلية للشخصية المسلمة، وإرجاعها لثوابتها التي لا بد من الارتكاز عليها عندما تخطو نحو نهضتها. وقد اشتمل البحث على مصطلحات عدة يُعَدُّ التعريف بها من الضرورات البحثية. لأن" المفاهيم ليست ألفاظًا كسائر الألفاظ، وإنما هي مستودعاتٌ للمعاني. والدلالات كثيراً ما تتجاوز البناء اللفظي وتتخطى الجذر لتعكس كوامن فلسفة الأمة ودفائن تراكمات فكرها ومعرفتها. [١]" لذلك سأوضح دلالة المصطلحات الواردة في عنوان البحث فيما يلي:

١–العقلية الغائية

العقل يعني: العِلْمُ بِصفاتِ الأَشْياءِ، من حُسْنِها وقُبْحِها، وكَمَالِها ونُقْصانِها، أو القُوَّة بها يكونُ التمييزُ بين القُبْحِ والحُسْنِ، [٢] ولذلك تعد "العلوم العقلية من طبيعة الإنسان من حيث إنه ذو فكر.

---

[١] – عارف، نصر محمد. (١٩٩٤م). الحضارة–الثقافة – المدنية، دراسة لمسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص:٩.

[٢] – الفيروز بادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب. (١٤٢٦ هـ –٢٠٠٥ م). القاموس المحيط، تحقيق: تحقيق مؤسسة الرسالة، محمد نعيم العرقسُوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة، *ط الثامنة*، فصل العين، ص:١٠٣٣.

والغَايَةُ: مَدَى الشَّيْءِ وأَقْصاه. قال اللَّيْثُ: الغَايَةُ مَدى كلِّ شيءٍ، وغَايَة كلِّ شيءٍ: مُنْتهاهُ، وَجَمْعُهَا غَايَاتٌ وغَايٌ"[١] ويمكن تعريف العقلية الغائية بناءً على ما سبق بأنها: القوة الفكرية التي تسرع للشيء، لتسبر أغواره، وتتخذه غرضًا.

٢–الشهود الحضاري

كلمة الشهود في اللغة تعني الحضور. وهي جمع شاهد. والشَّاهِدُ العالم الذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَه والمشاهَدَةُ: الْمُعَايَنَةُ. وشَهِدَه شُهودًا أَي حَضَرَه، فَهُوَ شاهدٌ. وقَوْم شُهُود أَي حُضور[٢]. وإذا كان من معاني الحضارة أنها: "محصلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية، من أجل الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني في عالم الشهادة. "[٣] فالعالم الإسلامي اليوم مطالب ببذل الكثير من الجهد والتفاعل من أجل الوصول لمقام الشهود الحضاري المنشود، والذي يعود بالأمة إلى سابق عهدها. وذلك من خلال ثورة أخلاقية وفكرية، يرتقي من خلالها المسلم إلى مقام الشهود الحضاري. فالشهود الحضاري هو: الحضور على الساحة الحضارية الإنسانية بمنجزات ترتقي بالإنسان من جميع جوانب حياته من خلال العقول المبدعة، انطلاقًا من أصالة فكرية، ومراعاة للواقع.

٣–الأمة

مصطلح الأُمَّةُ في اللغة يعني: الجِيلُ والجِنْسُ مِنْ كُلِّ حَيّ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: {وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ} (الأنعام: ٣٨). وأُمَّةُ كُلِّ نَبِيٍّ: مَن أُرسِل إِليهم مِنْ كَافِرٍ ومؤمنٍ. ". [٤] وقيل: "الأمَّة: كل جماعة يجمعهم أمر واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر

---

[١] – ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الإفريقي. (١٤١٤ هـ). لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط: *الثالثة*، فصل الهاء. ج: ١٤٣/١٥.

[٢] – لسان العرب، ج: ٢٤٣/٣.

[٣] – بن نبي، مالك. (١٤١٣ هـ–١٩٩٣م). موقع المسألة الثقافية في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، الطيب برغوت، الجزائر: دار الينابيع للنشر والإعلام، ص:١٠.

[٤] –لسان العرب ج: ٢٦/١٢ مرجع سابق.

الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعها أمم" [١] والمقصود بها في هذا البحث أمة الإسلام، وهم المؤمنون بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في العصر الحاضر.

المبحث الأول: تشكيل العقلية الهادفة في القرآن والسنة

لقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتدبّر في كتابه وكونه وخلقه وشؤونه، أمرًا يأتي في مساق الاستفهام والنفي الإنكاري. {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} (محمد: ٢٤) " وهذ يبين "أن من أعظم ما عني به القرآن الكريم: تكوين العقلية العلمية...ومن قرأ القرآن وتدبره بحق وجد مقومات هذه العقلية مجسمةً فيه. " [٢] وبيان ذلك في المطالب التالية.

المطلب الأول: الحاجة لبناء العقلية الهادفة:

إن السعي الحثيث لبناء العقلية الغائية ذو أهمية بالغة، ولا بد أن يسبقه إحساس بقيمة هذه العقلية على مسيرة النهوض الحضاري للأمة، ومدى الحاجة إليها؛ لتتقبل الأمة التغيير الذي تحتاجه في سبيل ذلك، وتمهد السبيل لتحصيله. فالمسلم لا ينبغي له أن يكون كالريشة في مَهَبِّ الريح تُسَيّره كيفما اتفق، فتغدو به الرغبات، أو تروح به الشهوات؛ أو تصير حياته ردَّات فعل لمجرياتها، أو يرسم له الناس طريقه، أو يلجئوه إليه إلجاءً، فهذا كله من الخور وضعف العزيمة، وفقدان الثقة بالنفس، وعدم الاعتماد عليها، وعدم الثقة في قدرتها على صنع الحياة ورسم خارطة واضحة لها.

" وإن ما أصاب الأمة من تخلف، وما نالها من عناء، يوجب على العقل المسلم أن يأخذ دوره الصحيح مصدرًا للفكر الإسلامي، متكاملاً ومتعاونًا مع مصدر الوحي والكون للعمل سويًّا على بناء الرؤية الحضارية من منظور إسلامي، وبناء المجتمع المسلم المعاصر. " [٣] وإن شعورنا بالخطر وإحساسنا بالمرض الذي أصاب عقولنا هو البداية الحقيقية للتحول نحو العقلية الواعية الهادفة التي لا تضيع وقتًا ولا

---

[١] – الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. (١٤١٢ هـ). المفردات في غريب القرآن، دمشق بيروت: ط دار القلم، ج: ٨٦/١.

[٢] – القرضاوي، يوسف. (1416 هـ –1996م). العقل والعلم في القرآن الكريم، القاهرة: مطبعة المدني، ص:٢٤٩.

[٣] – أبو سليمان، أحمد عبد الحميد. (٢٠٠٩). أزمة العقل المسلم، إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص: ١٣٩.

جهدًا في سبيل الوصول للخيرية والريادة الحضارية." والأمة محتاجة لدراسات نقدية تحليلية لواقع الحال الإسلامية اليوم وبيان مواطن الخلل التي أطفأت فاعليتها وأصابتها بالعقم والاستمرار في العجز عن الإنتاج والذي يؤدي بدوره لانتكاس حضاري، وتكريس للتخلف وتفلت من الذات [١] وتكمن أهمية بناء هذه العقلية الغائية من خلال القرآن الكريم في أنها:

تؤدي إلى بناء الشخصية المتكاملة للفرد المسلم من خلال تشكيل العقل المقاصدي الهادف، الذي صنعه الإسلام في ضوء هدايات الوحي.

الاستفادة المثلى من إمكانات المسلم والتي تَصُبُّ في النهاية في صالح الأمة.

الإسهام في إحياء وعي المسلم برسالته الإنسانية، ليمارس مهمته في إلحاق الرحمة بالعالمين.

تحقيق النقلة الغائبة عن الحياة الثقافية والعقلية التي تعيشها الأمة المسلمة اليوم، والتحول من حالة النقل والتلقين والمحاكاة والتقليد الجماعي والوهن الحضاري، إلى مرحلة ممارسة التفكير والاجتهاد والتجديد والتغيير [٢].

الوصول إلى التحضر المنشود، "فالتحضر ليس وضعًا مجبولاً في فطرة الإنسان وإنما هو وضع كسبي يستحدثه الإنسان بإرادته الحرة. [٣] ومن السبل الموصلة إلى ذلك تشكيل العقل المسلم على الغائية وترك العشوائية.

ولذلك يُعَدُّ غياب العقلية الغائية من الأخطار المحدقة على الأمة، فغيابها يعني " شيوع عقلية إلغاء السنن وقوانين الحركة التاريخية، وغياب فكرة السببية، وانهدام معايير التقويم والنقد والمراجعة، وتحديد مواطن الخلل، واكتشاف المسؤولية التقصيرية عن الأداء، وإلغاء المقاصد والغايات من الفعل البشري، التي تعتبر المحرض الحضاري للحركة والتقدم. [٤]

---

[١]– الأمين، عبد الله محمد. (١٤٣٤هـ ٢٠١٢م). الرؤية الإسلامية والمسالة الحضارية دراسة مقارنة، كتاب الأمة ١٥٣، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر: ص:٢٠، بتصرف يسير.

[٢] – الطيري، عبد الرحمن بن سليمان، نور الدين بن مختار الخادمي (١٤١٩هـ، ١٩٩٨م). الاجتهاد المقاصدي حجيته.. ضوابطه.. مجالاته، كتاب الأمة ٦٥، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر: ص:١١، ١٢، بتصرف.

[٣] – الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية، ص: ١٤٦.

[٤]– الاجتهاد المقاصدي، مرجع سابق، ص: ٢٨.

إن الأصل أن يتمتع المجتمع المسلم بالفاعلية اللازمة ليبقى حيًّا بين المجتمعات، ومن أسباب فاعليته الحضارية أن يتخلَّص من كل ما يعوق مسيرته، وأن يسد أبواب الخلل التي تهدر مصادر الطاقة لدى أفراده، ومن أهمها التخلي عن هذه العقلية العشوائية المرتبكة الاتكالية الفاقدة للمعنى، الراغبة في الكسل، والزائغة عن أهدافها. " فالمجتمع حين يفقد مبرراته فإنه يفقد وجوده الاجتماعي، وينقلب من مجتمع متحرك إلى مجتمع جامد. ومن هنا فإن فقدان المبررات في أي مجتمع يعني السقوط في هاوية العجز والوهن، وبداية الدخول في ليل التاريخ. [١]" إن المبررات هي بمثابة الوقود الذي يبعث الحياة في الأجيال الخاملة، وهي السبب في ارتفاع درجة الفاعلية التي تشيع في أفراد الأمة.

ومن الملاحظ " أن الكثيرين من المسلمين اليوم فقدوا الرغبة في العمل والعطاء، وتسرب إليهم الوهن والعجز لضعف إيمانهم، وفتور هممهم، فالقوة الإيمانية التي دفعت أسلافهم نحو البناء الحضاري، لم تعد تملك الوقود اللازم الذي يتمثل في شرارة الروح، ووضوح الفكرة، وبذلك أصبح المسلمون عاجزين عن أداء رسالتهم الحضارية. لأن من يفقد قوة الدفع اللازمة سيبقى ثابتاً في مكانه يدور حول نفسه [٢]." ومن هنا ندرك أن غياب العقلية الغائية هو غياب للشهود الحضاري للأمة، وتكريس للتبعية والانحطاط

المطلب الثاني: العقلية الهادفة في القرآن الكريم.

لقد حوى الكتاب المبين بيانًا للأهداف الكلية التي يرسم المسلم حياته للوصول إليها؛ فوضح له الغاية من وجوده، وكذلك الغاية من إرسال الرسل، وإنزالِ الكتب، وفَرْضِ الشرائع، وسَنِّ الحدود، وتحريمِ المنكرات، وإباحةِ الطيبات...، كل ذلك في بيان واضح لا لبس فيه ولا غموض؛ ليعيش المسلم بهداية الوحي، وبرؤية قرآنية تعافيه من التخبط في السعي أو الضلال في القصد والمسلك؛ ولذا تُعد المقاصد التي حددها القرآن الكريم" الميزان والمعيار الذي يجب أن نزن به أعمالنا الفردية والجماعية، وحياتنا الخاصة والعامة فكل عمل قلبي أو أخلاقي أو اقتصادي أو سياسي أو عسكري أو حضاري لا يهتدي بمقاصد القرآن أو بمقاصده في القرآن فهو حائد عنه.[٣]"

---

[١] تأملات، مرجع سابق ص: ٣٧.

[٢] تأملات، مرجع سابق ص: ٩٦_٩٧.

[٣] – الريسوني، أحمد. (١٤٣٥هـ ٢٠١٤م). مقاصد المقاصد الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة، ط: دار الكلمة للنشر والتوزيع ص: ٤٢.

وهذا يُلاحظ من خلال النصوص القرآنية الكريمة التي دلَّت على الغاية من العقيدة التي يرسخها القرآن الكريم في القلوب. ومن العبادات والمعاملات والأخلاق، والتي تمثل السلوكيات العملية لما وَقَرَ في القلب من يَقِينٍ.

فالعقيدة عند المسلم هادفةٌ إلى جعل الأعمال كلها موجَّهة إلى الله تعالى، تهدف لرضاه، وتجعل التوحيد غاية سامية تنطلق إليه كل الأعمال قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣)

كما بين القرآن الكريم أن الحياة كلها تمثل دائرة ابتلاء واختبار للإنسان؛ لمعرفة مدى أدائه لهذه المهمة والقيام على آدابها بأحسن السبل وأقومها، قال تعالى: { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ }(الملك: ٢) فالله" تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُ خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ لِأَجْلِ ابْتِلَاءِ الْمُكَلَّفِينَ وَامْتِحَانِهِمْ فَهَذَا يُوجِبُ الْقَطْعَ بِحُصُولِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ، لِأَنَّ الِابْتِلَاءَ وَالِامْتِحَانَ يُوجِبُ تَخْصِيصَ الْمُحْسِنِ بِالرَّحْمَةِ وَالثَّوَابِ وَتَخْصِيصَ الْمُسِيءِ بِالْعِقَابِ، وَذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا مَعَ الِاعْتِرَافِ بِالْمَعَادِ وَالْقِيَامَةِ.[١]"

ولقد نوهت العبادات جميعها على هذا المعنى، ففي الصلاة لابد من القصد الواضح الخالي من شبهه الرياء والسمعة، قال تعالى: {حافظوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } (البقرة: ٢٣٨) وفي الإنفاق يجعل الله النفقة مرفوضة إذا خلت من القصد والهدف الصحيح وهو مرضاة الله والوفاء بحق المنعم جل وعلا قال تعالى: { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (البقرة: ١٩٥) فالنفقة لابد وأن تكون في سبيله وليست في سبيل غيره، وإلا فهي مردودة على صاحبها. فالغاية من العمل ركَّز عليها القرآن الكريم وجعلها أساسًا لقبول العمل أو رفضه.

وهذا فضلاً عن الحِكَم التشريعية التي تتولد عن هذه الأعمال من فوائد اجتماعية ونفسية. وغير ذلك، فالتربية العقلية المستنبطة من هذا التوجيه لا تخفي على أصحاب البصائر، وهي أن العقل المسلم يُصَاغُ على أن الغاية الصحيحة بداية النجاح والتوفيق، وأن الهدف الخاطئ بداية الزلل والانحراف وضياع الجهد كله، بل، وقد تضيع حياة الإنسان كلها إذا رسم لنفسه هدفًا خاطئًا فجعل عبادته إرضاء لحَجَرٍ

---

[١] – الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي. (١٤٢٠ هـ). مفاتيح الغيب التفسير الكبير، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٣ ، ج: ١٧/٣٢٠.

أو بِشرٍ. وفي ذلك يقول الله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} (الفرقان: ٢٣) إنها:" إعداد هذا الكائن البشري لدوره على الأرض، وتهيئته للكمال المقدر له في حياة الآخرة. [١]"

والإشارة إلى الغايات في القرآن الكريم تأتي على وجهين:

الوجه الأول: الغاية الصريحة، مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة: ١٨٣) وكذلك في الحج (البقرة: ١٩٦).

والوجه الثاني: الغاية الضمنية، والتي تبدو عند استقصاء العبادات والأحكام الشرعية كافة، والتي شرَّعها الله تعالى في كتابه العزيز أو على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. حيث تبدو غايةٌ عامةٌ جامعةٌ، عَلِمَهَا مَنْ عَلِمَهَا وجَهِلَهَا مَنْ جَهِلَهَا،" وهي جلب المنفعة ودفع المضرة والمفسدة عن الخَلْق. وفي سبيل هذه الغاية وفي خدمتها تأتي الأحكام والتكاليف جزئيةً كانت أو كُلِّيَّةً. فكليات القرآن الكريم — وسائر مضامينه–تأتي وفق أغراضه وحكمته ومراميه، في مخاطبة الكيان البشري والواقع البشري مجتمعا متداخلا متفاعلا من لأجل هدايته وتزكيته وترشيده. [٢]" يقول ابن تيمية — رحمه الله–:" فإن الله أمر بالصلاح ونهى عن الفساد، وبعث رسله بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها. [٣]"

ولا توجد منفعة أعظم من أن يصل الإنسان للتقوى والتي تحجب عنه كل مضرة وتوصله لكل مَسَرَّةٍ، ولذا جعل دراز — رحمه الله–الغاية من الشريعة واحترام مبادئها هي التقوى. " فالشريعة توصي بالعدل والرحمة معًا، وتتوافق فيها العناصر الفردية والاجتماعية والإنسانية والإلهية، وعلى نحو متين، بيد أننا لو بحثنا في مجال هذا النظام عن فكرةٍ مركزيةٍ عن الفضيلة الأم التي تتكثف فيها كل الوصايا فسوف نجدها في مفهوم التقوى، وإذن، فما التقوى إن لم تكن الاحترام البالغ العميق للشرع"[٤] فجعل رحمه الله

---

[١] — قطب، سيد. (٢٠٠١). في ظلال القرآن، القاهرة: طبعة دار الشروق، ج:١/١٦٨.

[٢] — الريسوني، أحمد. (١٤٣٥هـ –٢٠١٤م). الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، القاهرة: دار الكلمة للطبع والتوزيع *ط:* ٤ ص:٦٣.

[٣] – ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام. (١٤٠٨هـ –١٩٨٧م). الفتاوى الكبرى، بيروت: دار الكتب العلمية، ج: ٤/ ١٥٦.

[٤] — دراز، محمد عبد الله. (١٤١٨هـ / ١٩٩٨م). دستور الأخلاق في القرآن، القاهرة: مؤسسة الرسالة، ط ١٠/ ٦٨١.

التقوى غاية كل عمل يقوم به المسلم وهو لا يخرج عما قاله العلماء من أن أوامر الشريعة كلها مُحَقِّقَةٌ لمصالح العباد ودافعة للضر عنهم، فليس هناك مصلحة أعظم من التقوى ؛ فبها سعادة المرء في الدارين.

إن ما استشهدتُ به من آيات أو أحاديث عن العبادات الغرض منه أن العبادات تهيئ المسلم للحياة، وتجعل آليات النجاح مفروضةً عليه فرضًا؛ فالنجاح في الإسلام ليس من قبيل الرفاهية، كما أن معرفة أدواته ليست متروكة للإنسان على وجه الاختيار، ولكن من عظمة هذا الدين أنه جعل النجاح واجبًا على المسلم يُحاسَب عليه إذا قَصَّرَ في طلبه، ويَدَرِّبُه على أدواته في ثنايا أركان الدين ذاته، ومن خلال أداء الشعائر التي لا يصير المسلم مسلمًا بدونها. وهذا إعلان من الإسلام بعدم قبول وجود مسلم مهمل راسب في دروب الحياة وقد تعلم أدوات النجاح والتفوق لا على سبيل الترفيه والاختيار ولكن بطريقة الفرض والإلزام.

ومن الدلائل على عناية القرآن الكريم بتشكيل العقلية المسلمة الغائية أن بيَّن للمسلمين تنوع الغايات بين غايات دنيوية، وأخرى أُخرويَّة.

أولا: الغايات الأُخرويَّة

طلب المغفرة

هذه غاية راقية رغب فيها سحرة فرعون، بعد أن هداهم الله للإيمان وأضاء بصائرهم بنور اليقين. قال الله تعالى عنهم: { إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ } (الشعراء: ٥١) فهذه الغاية دفعتهم لدفع الثمن الغالي في سبيل تحقيقه وهو التضحية بالنفس، ولم يرهبهم المصير المؤلم الذي حذَّرهم منه فرعون وأراد أن يجعله حائلاً بينهم وبين تحقيق غايتهم عندما قال لهم: { لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ } (الأعراف: ١٢٤)إن نبل غايتهم وثباتهم صمد أمام المغريات والتهديدات، وهكذا" النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم. إنها لا تقف لتسأل: ماذا ستأخذ وماذا ستدع؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق. إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع. كما أنه لا يخضع أو يخنع. الإيمان الذي

يطمئن إلى النهاية فيرضاها، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره. [1]" وهذه من المعاني الراقية البنَّاءة التي تغرس في عقلية المسلم أن من الأهداف ما يستميت المسلم في الحصول عليها حتى لو ذهب ذلك بأنفس ما لديه، وهي نفسه التي بين جنبيه، ودلالةً على أن الأهداف العليا تتطلب تضحيات عُلْيا.

ب–النجاة من النار

لقد نحى القرآن الكريم في سبيل إقرار هذا الهدف منحيين. أحدهما: تلقيني، والآخر: قصصي. أما الأول: فقد ذكر فيه القرآن الكريم الغاية على وجه التلقين والتعليم، لذلك فصَّل الآليات المؤهلة لبلوغها، وذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (الصف: ١٠–١١). فالإيمان بالله والرسول، والجهاد بالنفس والمال أعمال تؤدي إلى النجاة من العذاب الأليم، ولأن الهدف تلقيني فقد ذكر القرآن الكريم أساليب لتتم عملية التعليم بلا تدخل من فكرٍ خياليٍ أو اتِّكاليٍ، ولهداية العقل وتربيته.

وأما الطريقة الثانية لغرس هذه الغاية فهي: القصة من خلال ذكر نماذج لأناس توصلوا لهذه الغاية بخطوات عملية واضحة. ومن ذلك ما جاء في الإخبار عن طائفة عافاها الله من العذاب مع بيان أعمالهم التي أهَّلتهم لذلك، قال تعالى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)} (الإنسان ٧–٩)

ثانيًا: غايات دنيوية

إن القارئ للقرآن الكريم ليجد حرصه البلغ على تشكيل العقلية المسلمة على صناعة الغايات الدنيوية؛ وذلك للقيام بواجب الاستخلاف في الأرض، فيحوز القدرة على عمارتها بطريقة صحيحة، فضلاً عن نيل الثواب لعمله إذا قصد به وجه الله تعالى، فيصير العمل للدنيا وللآخرة معًا.

[1] في ظلال القرآن، ج: ٣/ ١٣٥٠.

ومن النماذج الدالة على ذلك ما جاء في قصة سيدنا موسى– عليه السلام– عندما أراد الرجل الصالح أن يُزَوِّجه ابنته، وهذا هدف مهم في حياة الإنسان، وهو تكوين بيت يأنس فيه بزوجة وأبناء. قال تعالى: { قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ } (القصص: ٢٧) ولتحقيق هذه الغاية وضع خطة زمنية، حيث قال الرجل الصالح لموسى عليه السلام كما حكاه القرآن { عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ } (القصص: ٢٧)ومن الملاحظ هنا مراعاة إمكانية موسى عليه السلام، فالخطط العملية الجيدة لابد وأن تراعي قدرة المرء على إنجازها وإلا كانت ضربًا من الخيال، وتلقى الفشل ولو بعد حين، لذلك يقول الرجل الصالح: { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ } (القصص: ٢٧) ومن اللافت للنظر هنا أيضاً أن المسلم في رسمه للخطة التي سيصل بها لغايته لا ينفك عن طلب التوفيق والمعونة من ربه سبحانه وتعالى، ولذلك كان ختام الاتفاق هو التوكل على الله قال تعالى: { قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } (القصص ٢٨) فبيَّن موسى– عليه السّلام– هذا البيان تمشيًا مع استقامة فطرته، ووضوح شخصيته، وتوفيةً بواجب المتعاقدَيْن في الدقة والوضوح والبيان[١]". وفي هذا تعليم للمسلم أن يقيم معاملاته الدنيوية بهذا الوضوح ودقة البيان؛ لينال غايته التي يرجوها.

أمور مهمة في صناعة الغايات في القرآن الكريم

لقد رسم القرآن الكريم الكثير من المعالم الهادية للعقل المسلم في سعيه الحثيث للتوجه نحو غاياته. ومن ذلك:

التلازم بين صحة الغاية وطريقة تحصيلها

إن الغايات لا تنفك أبدًا عن الخطوات العملية الصحيحة، فالغاية لا تبرر الوسيلة في الفكر الإسلامي، فإذا انفصلت الوسيلة عن الغاية فقد انحرفت من حيث الصحة، وربما صارت مجرد أُمنياتٍ مكذوبة لا قيمة لها، ولذلك يقول تعالى عن اليهود والنصارى: { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (البقرة: ١١١)، فاليهود والنصارى لن يصلوا لغايتهم

[١] – في ظلال القرآن، ج: ٢٦٧١/٥.

وهي دخول الجنة؛ لأنهم سلكوا الطريق المعوج، وهو الكفر والإساءة للرسول صلى الله عليه وسلم. وتوضيحًا للأمر وترسيخًا لمبدأ التلازم بين تحقق الغاية وسلوك الطريق الصحيح في ذهن المسلم؛ ذكر القرآن الكريم بعد تلك الآية مباشرة الطريق الصحيح الذي كان على اليهود والنصارى أن يسلكوه إن كانت رغبتهم في النجاة صادقة. قال تعالى: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: ١١٢) فنُبْلُ الغاية وحدها لا يكفي ما لم يُلازمها سبيل صحيح يوصل إليها.

بث روح الطمأنينة

حرص القرآن الكريم على بث روح الطمأنينة في نفوس أصحاب الغايات؛ ليدفع هِمَمَهُم إلى العمل بثقة وأمان، وذلك من خلال أمور عدة منها:

أ–الوعد الإلهي بالمعية الإلهية، وباستفادة المسلم من سعيه وعدم ضياعه بشرط الإحسان وإلزام النفس بالتركيز على الغاية النبيلة، وقصد معالي الأمور وترك سفسافها. (النحل ١٢٨).

ب–بيان سعة عطاء الله.

وذلك لفتح المجال أمام العقلية المسلمة لتضع أهدافًا عليا كبيرةً، دنيوية أو أخروية لتستخرج الطاقات الكامنة في الإنسان، وتستفيد من الإمكانات التي أودعها الله فيه. فهِمَمُهُمْ لا بد وأن تعانق السحاب، وأهدافهم لا بد أن تتخطى حدود الدنيا إلى الآخرة. وهذا مطلب رباني وليس تَعَسُّفًا في تعامل الإنسان مع ذاته، بل هكذا ينبغي أن يكون. قال تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} (الإسراء ٢٠)

ج–التفريق بين الغايات

بيَّن القرآن الكريم أن الغايات تنقسم من حيث الصلاح والفساد إلى أهداف صالحة وأخرى فاسدة. وهذا أمر طبيعي لوجود الأخيار والأشرار من الخلق الذين يعيشون معًا على أرض واحدة. (الشورى: ٢٠).

المطلب الثاني: العقلية الهادفة في السنة النبوية.

من عناية السنة في تربية العقل على القصد وعدم العشوائية في السعي ما جاء عن عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو عَلَى المِنْبَرِ. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[١]، فمن معاني الحديث أن "كُلُّ عَمَلٍ بِنِيَّةٍ فَلَا عَمَلَ إِلَّا بِنِيَّةٍ."[٢] ولذلك "جعل الإسلام النية، التي تعني تحديد الهدف وبعث العزيمة على الفعل، محور العمل، ومدار الحركة، ومناط الثواب، فالنية من بعض الوجوه، هي الفكر قبل الفعل، والخطة قبل التنفيذ، والإرادة قبل القدرة، ورؤية الهدف، وعلم الطريق، واختيار الوسيلة الموصلة إلى الهدف، وهي العزيمة على الوصول قبل بدء الإقلاع".[٣]

إن المسلم أَمْرُهُ بيديه، يغالب قَدَرَ الله بِقَدَرِ الأسباب الذي مكَّنه الله منها، فلا ينبغي له أن يتغافل عن هذا ويتجاهل قدْرَ ذاته. وقد دعت السنة إلى رسم الغايات والاستقلالية في القرار والاعتماد على الذات في التوجُّه نحو العمل، فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا "[٤]، والإِمَّعَةَ هُوَ الَّذِي يُتَابِعُ كُلَّ نَاعِقٍ، وَيَقُولُ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنَا مَعَكَ لِأَنَّهُ لَا رَأْيَ لَهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّقْلِيدِ الْمُجَرَّدِ حَتَّى فِي الْأَخْلَاقِ فَضْلًا عَنِ الِاعْتِقَادَاتِ وَالْعِبَادَاتِ، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الْإِحْسَانِ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ فَأَحْسَنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا لِأَنَّ عَدَمَ الظُّلْمِ إِحْسَانٌ[٥]

وقد كان رد النبي صلى الله عليه وسلم على ما يَسْأَلُ عنه بعض المسلمين فيه دلالة على الاهتمام بتربية العقل على الغايات الواضحة المباشرة من كل عمل؛ ليبني عقلية غائية تصنع حضارة للإنسانية،

---

[١] – البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي. (١٤٢٢هـ). صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ك: كيف كان بدء الوحي، ب: بدء الوحي، القاهرة: دار طوق النجاة، ج١/٦.

[٢] – ابن حجر، أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني الشافعي. (١٣٧٩). فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت: دار المعرفة، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، ج: ١٢/١.

[٣] – الاجتهاد المقاصدي، ص: ١٠.

[٤] – سنن الترمذي، ج:٤/ ٣٦٢.

[٥] – المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، بيروت: دار الكتب العلمية، ب: ما جاء في الإحسان والعفو، ج: ٦/ ١٢٣.

حضارة تبني ولا تهدم، تصلح ولا تفسد، فعَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا القِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ، قَالَ: وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا، فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» [١] "وحاصل الجواب أن القتال في سبيل الله قتال منشؤه القوّة العقلية لا القوة الغضبية أو الشهوانية، وفي الحديث بيان أن الأعمال إنما تحسب بالنيات الصالحة، وأن الفضل الوارد في المجاهدين يختص بمن قاتل لإعلاء كلمة الله [٢] وليس لسواه أجر.

وليس بعض الناس في العصر الحديث بأحسن حالا ممن عاشوا في الجاهلية، فمن الناس الآن مَنْ يقتل غيره لا لغاية إلا لأن الراية نُصِبت له. فهو يقاتل تحتها وهو عُمِّيٌّ عن رؤية الغاية من القتل والقتال. ولذلك يقول الرسول محذِّرًا من ذلك، فيما رواه جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يُقَاتِلُ عَصَبِيَّةً، وَيَغْضَبُ لِعَصَبِيَّةٍ فَقِتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ» [٣] فأي ضلال أشد من هذا!؟ يَقْتلُ الإنسان ويُقتل. ولا يدري لم قُتل؟! ولا لماذا قاتل؟ ومن الإعجاز النبوي تحذير السنة من ذلك. فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ، فَقِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ ؟ قَالَ: الْهَرْجُ، الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ) [٤]. قَالَ النَّوَوِيُّ –رَحِمَهُ اللَّهُ: أَمَّا الْقَاتِلُ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا الْمَقْتُولُ فَإِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ لِلْمَذْهَبِ الصَّحِيحِ الْمَشْهُورِ أَنَّ مَنْ نَوَى الْمَعْصِيَةَ وَأَصَرَّ

---

[١] – صحيح البخاري، مرجع سابق، ك: العلم، ب: مَنْ سَأَلَ، وَهُوَ قَائِمٌ، عَالِمًا جَالِسًا، ج: ١/ ٣٦.

[٢] – الصديقي، محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الشافعي. (١٤٢٥ هـ -٢٠٠٤ م). دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، باب الإخلاص، بيروت: دار المعرفة، *ط: ٤*، ج:١/٧٥.

[٣]– النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني. (١٤٠٦ – ١٩٨٦). المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية *ط: ٢*، ب: التغليظ فيمن فاتل تحت راية عمية، ج:٧ /١٢٤.

[٤] – مسلم، بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج: ٢٢٣١/٤، رقم (٢٩٠٨).

عَلَى النِّيَّةِ يَكُونُ آثِمًا وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهَا وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهَا. [١]، وهذا فيه تحذير للمسلم من الغاية السيئة التي قد تحدث عُمْيَّةً، ولا يخفى ما فيه من المذمة لمن يفعل ذلك. وإرشاد للعقل المسلم لتجنب هذا المصير.

المطلب الرابع: أثر العقلية الغائية في مسيرة الحضارة الإسلامية

إن تربية العقلية المسلمة على رسم الغايات أمر مقصود ومبثوث في ثنايا الدين عقيدة وشريعة وأخلاقًا. فلا يخلوا العمل من غاية، سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا، ويحاسب المسلم نفسه على ذلك أشد المحاسبة. وهذا يوضح الفارق الذي صنعه الإسلام في العقلية العربية إبان البعثة النبوية المباركة، فقد كان الأعرابي ينساق وراء العصبية القبلية والهمجية الجاهلية بلا هدف واضح إلا أنه متبع لغيره، منكرٌ لذاته، ذائبٌ في مجتمعه ذوبان الملح في الماء، فلا تجد له –غالبًا–ذاتاً مستقلةً ولا عملاً نابعاً من رغبة شخصية، وقديمًا قال دريد بن الصمة: وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد [٢]

لقد تغيرت العقلية الإنسانية بعد بزوغ نور الإسلام، فصارت عقلية غائية. قال الحسن في قوله تعالى: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} (القيامة: ٢) قال:" لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه، ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه. [٣]"، فصار للعقل المسلم ذاتيةٌ متفردةٌ. وكان "من أبرز ما تميز به العقل المسلم دون غيره، هو امتلاكه المعايير والثوابت المعصومة، التي تحققت من خلال معرفة الوحي، فشكَّلت له مركز الرؤية والمرجعية، ومنحته إمكانية القدرة على التصويب، والتقويم، والمراجعة المستمرة، وحصنته من كل محاولات الإلغاء، والاحتواء الثقافي. تلك المعايير النبوية، القادرة على حمايته وانتشاله لأنها ليست من وضعه، ولم تأت ابتداءً ثمرة لبيئته الثقافية. [٤]" وإنما جاءت من تعاليم وحي معصوم.

---

[١] – الهروي، محمد أبو الحسن نور الدين الملا القاري. (١٤٢٢هـ –٢٠٠٢م). مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح علي بن سلطان، بيروت: دار الفكر، ك الفتن، ج: ٨ /٣٣٨٧.

[٢] – الأصفهاني، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي. (١٤٢٤ هـ –٢٠٠٣ م). شرح ديوان الحماسة، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان، ص:٥٧٧.

[٣] – الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي. إحياء علوم الدين، بيروت دار المعرفة، ج:٤ /٤٠٥.

[٤] – الطيري، عبد الرحمن بن سليمان. (2016). العقل العربي وإعادة التشكيل، كتاب الأمة ٣٥، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر: ص:٣.

لقد تأثرت العقلية المسلمة بما أودعه القرآن الكريم وما غرسته السنة المباركة من آليات وأسس ومنطلقات لصناعة العقلية الغائية، وبدا ذلك من خلال ما تركه علماء المسلمين عبر عصور الإسلام الزاهرة من علوم وفنون استطاعوا من خلالها إظهار قدرة هذا المنهج الرباني على إنتاج صياغة جديدة للعقل البشري، ومن الأدلة على ذلك إنشاؤهم لعلم المقاصد. " فالفقه المقاصدي أو الاجتهاد المقاصدي، مبطَّن بأبعاد على غاية من الأهمية في تشكيل العقل المسلم بشكل عام، وإعادة بنائه، وتفعيل حراكه الاجتماعي.

والمطالع لتاريخ الإسلام يجد إسهامات علماء المسلمين في ذلك منذ قرون سلفت فهذا العلامة الشاطبي يخرج كتابه "الموافقات" والذي يوضح فيه استهداف الإسلام لغايات عليا من خلال التشريعات. والتي منها حفظ الضرورات الخمس. وفي العصر الحديث يُجَلِّي الطاهر بن عاشور هذا الفكر العميق في كتابة مقاصد الشريعة ويستدرك على الشاطبي في بعض الأمور ويجلى الكثير من الغايات وراء العبادات. ومن العلماء الذين كان لهم شأن عظيم في هذا الميدان الإمام ابن تيمية في كتبه وحجة الإسلام الغزالي في كتابة الإحياء، ولا زالت الأبحاث تحتاج إلى جهد من العلماء لاستجلاء المقاصد العظيمة من التشريعات الإسلامية ومنظومة القيم والأخلاق التي جعلها الإسلام حاكمة للمجتمع المسلم.

كما كان البناء الحضاري الهادف الذي شيده المسلمون دلالة على هذا التأثر الكبير بما أرساه القرآن الكريم والسنة المطهرة من أسس للتفكير عند المسلمين. ففي كل مجالات الحياة لم يكن الترف واللهو مقصدًا من مقاصد صنَّاع الحضارة في الإسلام، بل كانت الغاية متجهة لخدمة الإنسانية.

المبحث الثاني: المنطلقات والمعوقات

لقد أرشد القرآن الكريم والسنة النبوية إلى عدد من المنطلقات للعقل المسلم؛ ليتشكل على انتهاج الغائية من وراء أعماله كلها، كما حذر من عقبات قد تحول دون إدراك ذلك. وفيما يلي بيان ببعض هذه المنطلقات والعقبات.

المطلب الأول: منطلقات العقلية الغائية

إن الضمانة لسلامة الفكر تتأتى من سلامة الركائز التي يُبني عليها والمنطلقات التي يتوجه من خلالها. ولا بد لكي ينطلق العقل لصناعة غايات صحيحة أن يرتكز على منطلقات محددة تمثل الثوابت التي تضمن

له الانطلاق في الاتجاه الصحيح، وتمده في الوقت نفسه بالقوة اللازمة للانطلاق، كما أن قوة المنطلقات وجديتها وأصالتها تلقي بظلالها على النتائج المتوخاة في السعي من خلالها، وتتمثل هذه المنطلقات فيما يلي:

الانطلاق تحت مظلة الوحي

فالوحي هو الهادي والمرشد للعقل في المنهج الإسلامي، وهو الحامي له من الزيغ والانحراف، بما يمثله الوحي من عصمة للعقل عن الإيمان بالخرافات والأساطير، ونهي عن اتباع للهوى والشهوات، أو الاعتماد على الظن أو التوهم.

ويمثل الانطلاق تحت مظلة الوحي إطارًا حاكمًا للعقل في ظل اليقين والإيمان بوجود الله ووحدانيته، فينطلق في كل القضايا من خلال هذا اليقين، فيهتدي إلى الحقائق ويرسم الخطط ويؤدي ما عليه وهو يرى وحدانية الله وقدرته ماثلة أمامه، فيربط بين سعيه ويقينه، وما توصل إليه وما آمن به، وبذلك يحدث التناغم بين ما ينتجه العقل وما يؤمن به القلب، وما لأجله خلق الكون، وعليه تكيَّفت طبائع الأشياء.

وهذه الانطلاقة تمثِّل في الوقت ذاته الوقود اللازم للعمل، فلا يوجد ذكر للعقل في نصوص الوحي إلا ويلازمه الدعوة إلى الفكر والتحري، وعدم الاستجابة لعوائق الفهم والتبصُّر.

وقد نفذ الخلل إلى بعض العقول المسلمة في عصرنا الحديث عندما عملت على غير هداية من الوحي، فانطلقت تتعثر الخطى، وتبحث متأثرة بالهوى والشبهات والشهوات والأفكار المعوجة، فلم تجن من وراء ذلك إلا تخلفًا عن ركب الحضارة، وركضًا وراء أصحاب الأفكار الهدامة، والتي لم يستنر أصحابها بنور الوحي فضلوا وأضلوا.

تحديد دائرة العمل

من خلال تحديد دائرة عمل العقل يمكن للإنسان أن يتفادى الانطلاق في الاتجاه المعاكس والذي لا يزداد المرء في التوغل فيه إلا بعدًا عن الحق، وتخبطاً في السعي، وضياعًا للوقت، وشتاتًا في الذهن، وكم أتعبت العقول أصحابها لما بحثت في غير ميدانها من أمور غيبية لا طائل من وراء البحث عنها، وكان الأولى بها التسليم من غير عنت، واليقين من غير مشقة، والانطلاق بالعقل لميدانه الفسيح فيما وكِّل له

من أعمال في ميدان الكون الواسع، حيث التأمل والنظر والتدبر والفكر والتجربة والاستنتاج، واستخراج الخيرات، ودفع المكروهات، وتهيأت الحياة على أحسن نسق وأجمله، مستعينًا بالملكات التي تمكنه من الاكتشاف والتحري والبحث والتقصي. إن هذا المنطلق يعطي ثمارًا يانعة للمرء، ففيه اغتنام لإمكانات العقل فيما يعود بالنفع على صاحبه.

إن" العقل مدعو من منطلق الخلافة إلى تسخير الكون والكائنات لما فيه النفع. نفعه ونفع الكون والكائنات من حوله، ومدعو إلى العمل والسير في دروب الكون ومناكبه، ومدعوٌّ إلى العلم بأسراره وتسخير هذا العلم لما فيه الخير.[١]" وهذا هو ميدان العمل الذي يحسن فيه العقل ولا يسيء، ويصل فيه لغايات منشودة، فيها صلاح الفرد ونهضة المجتمع.

الإحساس بالمسؤولية الأخلاقية

تمثل هذه الركيزة الوقود اللازم للحركة الدائمة في المجتمع المسلم، والتي تضمن له العودة من الرقاد والخمول إلى العمل والجد للبحث عن مخرج للأمة من كبوتها، وعن سبيل لنهضتها ونهضة الإنسانية جمعاء. "فلا يمكن فهم الإنسان المسلم والعقل المسلم إذا لم نفهم منطلق المسؤولية وبعدها في هذه العقلية، وحتى في عصور التخلف، وفي أقصى ساعات ضياع الإنسان المسلم، فإن ما يبقي عليه ويؤرقه ويمنعه من أن يندثر وأن يتوارى في أغوار التاريخ هو أرق ضميره وإحساسه بمسؤوليته وتقصيره في أدائه".[٢]

٤–الاستعداد للتضحية في سبيل الغاية

مما لفت القرآن الأنظار إليه أن أتباع كل غاية لابد وأن يدفعوا ثمنًا للوصول إلى غاياتهم، وأن أهل الإيمان مع أهل الكفر في ذلك سواء، ولا علاقة لدفع الثمن هنا بفساد الغاية أو صلاحها، بل هذه سنة يتحرَّاها مَنْ يرغب في الوصول لغايته؛ ولذلك ذكر القرآن الكريم غاية الكفار وهي الصد عن سبيل الله، ثم قرن هذه الغاية بما قام به الكفار من أعمال لتحقيق غايتهم، وما بذلوه من ثمن لتنفيذ رغباتهم (الأنفال: ٣٦) وهذا يدعو المسلم إلى التوافق مع سُنَّةٍ من سُنَنِ الكون، وهي سنة الأخذ بالأسباب، كما يدعو العقلية المسلمة للتحرر من الاتكالية المفرطة، والأفكار الخاطئة التي أثّرت على مسيرة النهضة الإسلامية،

---

[١] – أزمة العقل المسلم، ص: ١٤٤ مرجع سابق.

[٢] – المرجع نفسة ص:١٤٥

حيث رغبت في نيل الدنيا بلا عمل، وأمَّلت في حصول النجاة بأماني مكذوبة تفتقر إلى الهمم العالية والأعمال المتقنة.

٥–شمولية التصور

ينطلق العقل المسلم من منظور شمولي يضمن له عدم الانحياز إلى جانب الدنيا على حساب الآخرة، ولا لجانب الآخرة على حساب الدنيا، فهو يعمل لهما معاً، وهذا يضمن له التكامل في سعيه.

٦–بشرية الأداء

ينطلق العقل المسلم من الإيمان ببشريته، فلا عصمة ولا تقديس لأفكاره وتوجهاته، بل هي عرضة للخطأ في التقدير والخلل في التطبيق، كما تخضع أفكاره لإمكانية النقض والتعديل. والإقرار بالتباين بين العقول والأفهام، وهذا يضمن للعقل المسلم المرونة والتجديد والتطوير، والسعي الدؤوب لمعرفة ما عند الآخر والاستفادة منه، وإمكانية الاختيار بين البدائل، والقدرة على تنوع آليات الأداء حسب ما تقتضيه ظروف الزمان والمكان، والبعد عن الجمود والتعصب، أو التقوقع على الذات والرفض لكل ما هو جديد. كما يعطي العقل المسلم رحابة في التفكير، ومجالا لا ينتهي من الإبداع، واستلهامًا لا ينقطع من الحلول لمشكلات العصر وقضاياه، مؤمنًا بقدرته على التجديد، ومطمئنًا من عدم المؤاخذة على الخطأ. فعَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ» [١]

المطلب الثاني: عقبات تحول دون تشكل العقلية الغائية

توجد الكثير من العقبات التي تحول دون وجود العقلية الغائية منها الفكري والسلوكي، ومنها ما تفرضه العادات والتقاليد.. وغيرها، مما يكون نابعًا من رغبة الشخص في ذاته، أوتدني إمكاناته، ومن هذه العقبات:

الاعتقاد الخاطئ في مفهومي القضاء والقدر والسببية

[١] – البخاري، ك: الاعتصام بالكتاب والسنة، ب: إذا اجتهد الحاكم فأصاب أو أخطأ. ج: ٩/ ١٠٨، رقم: ٧٣٥٢.

إن تشويه مفهومي القضاء والقدر ومفهوم السببية وسوء فهمهما أديا إلى فوضى فكرية عند بعض المنتسبين للإسلام، وإلى عجز وتراخ أثر بشكل مباشر على قدراتهم ودورهم في الشهود الحضاري للأمة. "وانعكست آثاره على الواقع العملي للمسلمين، في فترات زمنية معلومة وبخاصة في العصر الحديث، الذي عرف أشكالاً جديدةً من التحديات الاستعمارية، وأنواعا من الأخطار والمشكلات الحضارية، وأصبح المسلم مع هذا الفهم الخاطئ ينتظر الخوارق، ويرنو إلى المعجزات ليحل مشكلاته المستعصية."[١] ومن هنا صارت " الحاجة ملحة لإظهار الصلة الوثيقة بين عقيدة الجبر وما يترتب على انتشارها وتمكنها من قلوب عامة المسلمين من آثار شنيعة، دفعت بالأمة إلى حالة "اللافاعلية" الأمر الذي أسهم في إيصال الأمة إلى حالة من الجمود والتراجع قد طالت إلى واقعنا المعاصر."[٢]

إن التعلل بالقضاء والقدر عطل قوىً كثيرةً عن العمل وحجز عقولاً كثيرةً عن التفكير الصحيح الذي يبحث عن أسباب النجاح والفشل الماديين قبل أن يحيل إلى الأقدار بدايةً، مسلمًا من غير بحث، مستكينًا للنتائج من غير تَحَرٍّ ولا معرفة بأسبابها، وهذه سمة "المسلم الجامد الذي لا يدري أنه بهذا المشرب يسعى إلى بوار مِلَّتِهِ وحطِّها عن درجة الأمم الأخرى، ولا يتنبه لشيء من المصائب التي جرَّها على قومه..، فهو إذا نظر إلى هذه الحالة علَّلها بالقضاء والقدر بادئ الرأي، وهذا شأن جميع الكسالى في الدنيا يحيلون على الأقدار"[٣]

والغريب أن بعض المؤمنين يلوذ بالسكون والتجرد، أو بالقعود والتماوت باسم التعويل على الله، وإسلام القياد له. وهذا جنون وكفران لا عقل وإيمان.

ويمثل هؤلاء قول الشاعر:

والسعي للرزق — والأرزاق قد قسمت— بغي ألا إن بغى المرء يصرعه

إن أحاديث القدر علاج للقلق والتشاؤم، وليست ذريعة كسل وخمول. [٤] وعند البحث عن السبب في هذا الخلل نجده فيما ذكره الغزالي وهو "الخلط بين دائرتين متميزين كل التميز منفصلتين أتم

---

[١] — باطاهر، ابن عيسى. (١٤١٧هـ-١٩٩٧م). فاعلية المسلم المعاصر رؤية في الواقع والطموح، كتاب الاعتصام، ط دار البيارق ص: ٥٠

[٢] – المرجع نفسه ص: ١٨.

[٣] - أرسلان، الأمير شكيب. لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، القاهرة: ط دار البشير، ص١٠٣.

[٤] - الغزالي، محمد. (١٩٩٦). جدد حياتك، القاهرة: ط دار نهضة مصر، ط ٢/ ٧٠ بتصرف.

انفصال. دائرة " ما منه بُدٌّ " و " ما ليس منه بُدٌّ"، ثم التسوية بين المسالك والمشاعر التي تجيش تلقاء كل منهما. والحق أن كلتا الدائرتين لها مجالها وإيحاؤها. فالرجل إذا وقعت به مظلمة يملك ردها ويُؤتي القدرة على كفِّها، فإن صبره عليها جريمة، ورضاه بها معصية. أما إذا حلَّت به مظلمة يعجز عن دفعها، أو نابته كارثه يعلم أن التخلص منها فوق قواه، فيجب عليه أن يتحمل وأن يتصبَّر. إن الرضا بالقسمة أصبح سبة في التفكير الإسلامي، لأن الذين تلقَّوا الأمر وضعوه في غير موضعه، فسوَّغوا به الفقر والكسل والخمول، بدل أن يُهَوِّنُوا به كبوات السعي الجاد، وهزائم العالمين المرهقين، ومتاعب المظلومين في وظائفهم، وهم لا يستطيعون حيلة !!." [١]

"إن إلقاء التبعة على الأقدار نتيجةً لكل انحسار أو انكسار، أو تراجع أو هزيمة، بلا إعمال للعقل في الأسباب المؤدية لما سبق، معناه أننا أصبحنا مسلوبي الإرادة، وأننا تحولنا إلى جبريين، وأن إيماننا وتعاملنا مع قيمنا في الكتاب والسنة وفترة التجسيد في واقع الناس، فيه الكثير من المجافاة للحق والواقع والسيرة والتاريخ وخصائص خير القرون. فليس المؤمن، في الرؤية الإسلامية، هو الذي يستسلم للقدر، وإنما المؤمن الحق هو الذي يغالب القدر بقدرٍ أحبّ إلى الله، فالأقدار هي السنن التي شرَّعها الله. وتعبدنا في هذه الحياة بمدافعة قدر بقدر. [٢]

ولقد نبه علماءُ السلف على مغبة الِالْتِفَات إلى الأسباب كليةً، أو محوها كليةً، فقال ابن تيميه– رحمه الله–: "الِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ، وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ؛ بَلْ الْعَبْدُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ تَوَكُّلُهُ وَدُعَاؤُهُ وَسُؤَالُهُ وَرَغْبَتُهُ إلَى اللَّهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وَاَللَّهُ يُقَدِّرُ لَهُ مِنْ الْأَسْبَابِ – مِنْ دُعَاءِ الْخَلْقِ وَغَيْرِهِمْ – مَا شَاءَ". [٣]

إن الفهم الصحيح لمفهوم القضاء والقدر يثير الدافعية عند المسلم للعمل والعطاء، ويطلق في العقل ملكات التفكير في الاتجاه الصحيح للتأثير في مسيرة الأمة الحضارية ويورث الجراءة على مواجهة اليوم والغد.

٢–القصور في طُرق التعليم

---

[١] – المرجع نفسه ص: ٧٦.

[٢] – السامرائي، نعمان عبد الرزاق. (٢٠١٦م). نحن والشهود الحضاري، كتاب الأمة رقم: ٨٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر: ص: ٣.

[٣] – مجموع الفتاوى، ج: ١/ ١٣١.

إن طرق التعليم بدلاً من أن تكون حَلًّا لمشاكل التعليم صارت في بعض الأحيان جزءًا من المشكلة، حيث الاعتماد على التلقين بلا إعمالٍ للعقل، ولا تفتيق للذهن، والاكتفاء بالمستويات الدنيا من التفكير، وعدم الارتقاء إلى المستويات العليا التي تحرك العقل، وتدعوه للاستنباط والبحث عن الغايات, والعلاقات بين الأشياء والأسباب الداعية إليها، وهذا قد أصاب العملية التعليمية في مقتل، فصار التعليم تلقينًا لمعلومات يتم حشوها في ذهن المتعلم بلا استنهاض لقدراته الفكرية، ولذلك يوصي الكثيرون ممن يعنيهم النهوض بالعقل المسلم والعملية التعليمية "بعدم الاكتفاء بالتلقين للمعلومات والمعارف للطلبة، بل لا بد أن تتناول تغيير شخصياتهم وطرق تفكيرهم. وذلك عن طريق تنمية الاتجاه العلمي أو الأسلوب العلمي في التفكير لدى هؤلاء الطلبة....) [١]

٣–التقليد

التقليد هو "المحاكاة والإتباع من غير تفكير"[٢]. ولذا يُعد التقليد مما يصرف العقل عن الفكر المستنير، ويصده عن الوصول للحق، ويتوافق معنى من المعاني اللغوية للكلمة وهو الغطاء[٣] وعرفه الجرجاني بأنه " اتباع الإنسان لغيره فيما يقول أو يفعل، معتقدًا للحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الدليل، كأن هذا المتّبِع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه، وقَبِلَ قول الغير بلا حجة ولا دليل. فالتقليد يصرف العقل المسلم عن التصويب نحو الغايات السامية، ويوصله لافتقاد الذات وضياع الهُوِيَّة، فيؤل أمر الأمة للتخلف والانحطاط.

إن من الحقائق الدامغة التي تجعل من التقليد الأعمى قبرًا تُقبر فيه الأمم أن لكل أمة تكوينها في قيمها وعقائدها ومفاهيمها ونفسيتها وتاريخها، شأنها في ذلك شأن مكوناتها من بني الإنسان، فإذا لم يتم التعامل معها بفهم تلك الجوانب، ومن خلال تلك المكونات والدوافع فإن من الصعب تحريكها أو تحريك مكامن القوة والكفاح والبناء فيها.

والمتأمل في حال الأمة القريب والبعيد أيام نهضتها الحضارية وأيام انحطاطها الحضاري، يجد التقليد عنوانًا لعصور الانحطاط، والتجديد والإبداع عنوانًا لعصور التقدم والرخاء، ففي عصور الانحطاط يسير

---

[١] –الكيلاني، سري زيد. (١٩٩٥م). طرق تدريس علوم الشريعة في التعليم الجامعي وضرورة تطويرها، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي: ص: ٢٢٨.

[٢] – مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط، مكتبة الشروق، *ط:٤* / ٧٥٤.

[٣]– لسان العرب، ج ٥ / ٣٧١٩، مرجع سابق.

التقليد الأعمى مكبِّلاً للفكر، مثبطًا للعزائم، مخيبًا للآمال، ولا يقف عند العامة بل قد يسيطر على بعض من يُسَمّوْن النخبة ويحملون مشعل التنوير في المجتمع، ومن النماذج على ذلك من يقلدون النظريات الغربية الحديثة في المجالات الإنسانية، ويخضعون لها كأنها الوحي المعصوم الذي لا يملكون له ردًّا، ولا لأحكامه نقضًا، فيتم نقل النظريات في مجالات الاجتماع وعلم النفس والعلوم الإنسانية كما هي، بلا تمحيص لسبب نشأتها، ولا دراسة للبيئة التي نشأت فيها، ولا لمدى ملائمتها للبيئة الإسلامية، مما أحدث عقمًا فكريًّا عند الكثيرين، فاكتفوا بما يُنقل ويُقلد، دون تفحيصٍ ولا تمحيصٍ، ولا نقدٍ ولا تفنيدٍ، والأدهى والأمر هو توريث ذلك للناشئة، وعدم الرغبة في الانعتاق من أسر التقليد الأعمى الذي لم يزد الأمة إلا خبالاً. ولا يفوتني ذكر تقليد آخر من نوع آخر، وهذا النوع قد يصل لدرجة التقديس، وهو تقليد كل ما جاء عن السلف، حتى آمن البعض بالاكتفاء به وحده دونما تجديد أو تطوير رغم اختلاف الزمان والمكان والظروف والأحوال، بل والزعم بإغلاق باب الاجتهاد والاكتفاء بما جاء به التراث. "فيظل العقل المسلم أسير الماضي وانحرافاته دون القدرة على الفهم والتمييز وتصحيح المسارات والغوص في أعماق القضايا التي يواجهها وتحصيل اللباب من ورائها وبين ثناياها، حتى تنطلق مسيرته راشدة واثقة باتجاه المستقبل لا أن تقعد كفيفة مكبَّلة في زوايا الماضي الغابر"[١]

إن التقليد الأعمى يمثل ضررًا على المنهجية الفكرية للأمة، وعقبةً أمام كل فكر حر، يريد التحرر من أسر العادة وسخف الاتباع الأعمى. "وكلما تضخم مستوى التقليد كلما سقط الإنسان في مهاوي التبعية، والاعتماد على الآخرين في كل شيء، وبطبيعة الحال فإن الاعتماد على الآخرين لا يقف عند حَدٍّ معينٍ، بل يستمر ويستفحل لدرجة وصول الإنسان إلى حد الاستلاب، وحينما يستلب عقل المرء ونمط تفكيره، يتحول إلى كائن استهلاكي لا هم له إلا إشباع بطنه، وتقليد الآخرين في صراعاتهم وموضاتهم. وبهذا يخرج هذا الإنسان من الدورة الحقيقية للحياة، ويصبح ميت الأحياء. لهذا، فإن إنهاء الجمود والتحرر من عقلية التقليد الأعمى، وتجديد العقل، والداخل في مختلف مجالاته، هو البداية الحقيقية للتخلص من مشروع الاستتباع والاستبداد الخارجي."[٢] لذلك تُعَدُّ العودة بالعقلية المسلمة إلى الغايات التي رسمها القرآن الكريم والسنة المشرفة دون نقل لنمط فكري غربي، أو فلسفة مغايرة للدين الإسلامي،

---

[١] – أزمة العقل المسلم، ص: ٥١، مرجع سابق.

[٢] – المسعود، أحمد بن فهد بن أحمد. (١٤٣٢– ١٤٣٣). مفهوم التقليد دراسة تأصيلية في ضوء الإسلام، ص: ٩٤.موقع جامع البحوث والرسائل العلمية: http://b7oth.com/?p=1711.

أو تقديس لأفكار قديمة بالية لا تصلح لحال الناس اليوم، تُعد خطوة في العودة بالعقلية المسلمة إلى المنبع الذي صاغ العقلية التي صنعت التاريخ والحضارة، والتي يتعين عليها اليوم أن تعود للشهود الحضاري.

٤–ضعف الإرادة

إن مما هو مشاهد في دنيا الناس أن ضعيف الإرادة يسلم القيادة لغيره. ويرضى لنفسه أن يكون تابعًا ذليلاً مقرًا بعجزه، مؤمنًا بضعفه، راضيًا بالدونية لذاته، بلا إعمالٍ للفكر، أو ترجيحٍ لمسلك دون سواه، فهي الطاعة العمياء التي تمنع صاحبها من التبصر للحق. وهذا بلا ريب مما يورث البلادة في الفكر، ويعطل العقل عن العمل. وقد ذكر القرآن الكريم هذا الصنف من الناس الذين نستطيع أن نسميهم كما سماهم الرسول صلى الله عليه وسلم "الإِمَّعَة" وهو الذي عطَّل عقله وأسلم قياده لغيره، لأنه لا رأي له. وأيًّا كان السبب، فإن القرآن الكريم لم يعذرهم، ذلك أن تعطيل عقولهم وفكرهم يعني التنازل عن إنسانيتهم في شخص هذا المخلوق.. وبعد ذلك لن يبقى له إلا الحيوانية في كيانه. (البقرة:١٦٦–١٦٧)

إن ضعف الإرادة أضعفت ثقة هذا الصنف من الناس بأنفسهم، وحال بينهم وبين التأمل في مستقبل أيامهم، ومغالبة أحداث زمانهم، فهم بين رهبة من الغد لا يعرفون كيفية مواجهته، أو اغتراب في الماضي واستأنس به، وبهذا فهم يدورون في دائرة مغلقة لا يخرجون منها، فضلاً عن استنزاف قوتهم وتدهور مكانتهم الحضارية.

خاتمة

من خلال ما سبق يتبين أن العمل على إعادة تشكيل العقلية المسلمة على الثقافة المقاصدية من عوامل عودة الفاعلية للأمة الإسلامية والانعتاق من مرحلة الوهن الحضاري. وأن العقلية الاتكالية أو الجبرية خطر على مسيرة الحضارة الإسلامية في مسارها العام، وأن الأمه لن تتمكن من الشهود الحضاري إلا بعد تجديد صياغة العقلية المسلمة على هدايات الوحي المعصوم. ولقد توصلت من خلال هذا البحث إلى نتائج مهمه منها:

١. من أسباب الوهن الحضاري للأمة الإسلامية غياب العقلية الغائية، لذلك أصبحت عودة هذه العقلية ضرورة للشهود الحضاري.

٢. اشتمل القرآن الكريم والسنة المباركة على أسس وقواعد ومعايير لتشكيل العقلية القائبة تحول دون العشوائية في التفكير.

٣. أثَّر القرآن الكريم والسنة النبوية على مسيرة الفكر الاسلامي وطبيعة التفكير لدى العقل المسلم حيث انتقل من التبعية والطاعة العمياء إلى البصيرة في الفكر والعمل، ويُعَدُّ علم المقاصد والنظم الإسلامية دلالة على هذا التأثر. كما تدل طبيعة الحضارة الإسلامية الهادفة للإصلاح على التأثر الفعال.

٤. يحتاج العقل في عمله إلى ضوابط تحكمه ومنطلقات ينطلق من خلالها، ومن أهمها تحديد مناط عمله والاعتماد على الدليل والبرهان وليس الظن والتوهم.

٥. تخطئ العقلية المسلمة في مسارها عندما تعمل في غير ميدانها مثل البحث في الغيبيات مع أن الوحي المعصوم كفاها مؤنه البحث عنها، وكذلك عندما ينطلق العقل بعيدًا عن إرشادات الوحي.

٦. شكل القرآن الكريم العقل المسلم على السعي للدنيا وللآخرة معًا من خلال نماذج لغايات دنياوية وأخروية على المسلم أن يسعي لنوالها ليحقق التوازن في حياته.

٧. حذَّرت السنة النبوية من الطاعة العمياء وجعلتها خسارة لصاحبها وللأمة جمعاء. ودعت الى الغائية من وراء كل عمل دنيوي أو أخروي.

٨. توارثت الأمة أفكارًا خاطئة أثَّرت في مسيرة الفكر الإسلامي مثل الفهم الخاطئ لمفهوم القضاء والقدر.

٩. تُعَدُّ طرق التعليم العقيمة بوابة التخلف الحضاري. ولا يمكن عبور هذه المرحلة إلا بجعل التعليم ساحة لإطلاق العنان للعقل الاستنباطي والتحليلي الذي يربط بين الأسباب ومسبباتها والأمور ومقاصدها وتوصي الدراسة بما يلي:

- تطوير نظم التعليم لتكون قادرة على إنتاج العقول المبتكرة.
- الاتجاه نحو الوحي المعصوم لاستخراج ما فيه من دلالات إرشادية لسنن النهوض الحضاري.
- البحث عن أسباب الوهن الحضاري وعلاج ذلك بعمق من خلال دراسات موضوعية تبعد عن جلد الذات أو العيش في الماضي بعيدًا عن معطيات الواقع وإشكالياته.
- العمل على علاج المعوقات التي تحول دون انطلاق العقل المسلم من أسر التقليد.

المصادر والمراجع:

REFERENCES:

Abu M. (1979). *Dilālāt al-Tarākib*. Cairo: Maktabah Wahbah.

ʾAbu ʿUbaidah, M.M. (1383H). *Majāz al-Qurʾān*. Taḥqīq: Muḥammad Fuʾād Sizkīn. Egypt: Maktabah al-Khānjī.

Al-ʿAkbarī. (1416H) *al-Lubāb fī ʿlal al-binān wal I'rab*. Lubnān :Dār al-Fikr.

Al-Alusī, M. (n.d.). *Ruh al-Ma'āni*. Beirut: Dār Ihyā' al-Kutub al-ʿArabiyyah.

Al-Alusi, Sh. M. (1353). *Ruḥ al-mʿāni fi Tafsir al-Qurʾān al-aʿẓim wa al-sabʿ al-mathāni*. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabi.

Arsalan, A. S. (???????). Limadha Ta'akhara al–Muslimun wa limadha taqaddama gharuhum, Cairo: Dar al Bashir.

أرسلان، الأمير شكيب. لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، القاهرة: ط دار البشير.

الأصفهاني، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي. (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م). شرح ديوان الحماسة، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

Al-Asfahanī, A. M. (1424H/2003) *Sharh Diwan al-Hamāsah*. Lubnān :Dār al-Kotob al-Ilmiyyah.

الأمين، عبد الله محمد. (١٤٣٤هـ-٢٠١٢م). الرؤية الإسلامية والمسالة الحضارية دراسة مقارنة، كتاب الأمة ١٥٣، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر.

Al-Amīn, A. M. (1434H/2012). Al-*Ru'yah al-Islāmiyyah wal Mas'alah al-Hadhaā*riyyah, Qatar: Kitāb al-Ummah.

الأنصاري، فريد. (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م). أبجديات البحث في العلوم الشرعية، الدار البيضاء: منشورات الفرقان، مطبعة النجاح الجديدة.

Al-Ansarī, F. (1417H/1997). Abajadiyyāt al-Bahth fi al-Ulum al-Shariyyah, Casablanca: Manshurat al-Furqan.

lālāt aḥqīq: ḥamma kīn. njī. Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabi

البخاري، محمد بن إسماعيل أبوعبدالله الجعفي. (١٤٢٢هـ). صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ك: كيف كان بدء الوحي، ب: بدء الوحي، القاهرة: دار طوق النجاة.

البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي. (١٤٠٧ هـ -١٩٨٧ م). مصابيح السنة، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، بيروت: دار المعرفة للطباعة.

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله قاسم ابن أبي القاسم بن محمد. (١٤٠٨هـ -١٩٨٧م). الفتاوى الكبرى، بيروت: دار الكتب العلمية.

الجرجاني، علي بن محمد. (١٣٠٦هـ). التعريفات، مصر: المطبعة الخيرية.

ابن حجر، أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني الشافعي. (١٣٧٩). فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت: دار المعرفة، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.

ابن خلدون، عبد الرحمن محمد بن خلدون. مقدمة ابن خلدون.

دراز، محمد عبد الله. (١٤١٨هـ / ١٩٩٨م). دستور الأخلاق في القرآن، القاهرة: مؤسسة الرسالة.

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي. (١٤٢٠هـ). مفاتيح الغيب التفسير الكبير، بيروت: دار إحياء التراث العربي، *ط* ٣ .

الراغب الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد. (١٤١٢هـ). المفردات في غريب القرآن، دمشق بيروت: ط دار القلم، الدار الشامية.

الريسوني، أحمد. (١٤٣٥هـ -٢٠١٤م). الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، القاهرة: دار الكلمة للطبع والتوزيع.

الريسوني، أحمد. (١٤٣٥هـ ٢٠١٤م). مقاصد المقاصد الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة، ط: دار الكلمة للنشر والتوزيع.

السامرائي، نعمان عبد الرزاق. (٢٠١٦م). نحن والشهود الحضاري، كتاب الأمة رقم: ٨٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر.

أبو سليمان، أحمد عبد الحميد. (٢٠٠٩). أزمة العقل المسلم، إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

الصديقي، محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الشافعي. (١٤٢٥ هـ -٢٠٠٤ م). دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، باب الإخلاص، بيروت: دار المعرفة.

باطاهر، ابن عيسى. (١٤١٧هـ-١٩٩٧م). فاعلية المسلم المعاصر رؤية في الواقع والطموح، كتاب الاعتصام، ط دار البيارق.

الطيري، عبد الرحمن بن سليمان. (2016). العقل العربي وإعادة التشكيل، سلسلة كتاب الأمة ٣٥، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر.

الطيري، عبد الرحمن بن سليمان، نور الدين بن مختار الخادمي (١٤١٩هـ، ١٩٩٨م). الاجتهاد المقاصدي حجيته.. ضوابطه.. مجالاته، كتاب الأمة ٦٥، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر.

عارف، نصر محمد. (١٩٩٤م). الحضارة–الثقافة — المدنية، دراسة لمسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي. إحياء علوم الدين، بيروت دار المعرفة.

الغزالي، محمد. (١٩٩٦). جدد حياتك، القاهرة: ط دار نهضة مصر.

الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب. (١٤٢٦ هـ –٢٠٠٥ م). القاموس المحيط، تحقيق: تحقيق مؤسسة الرسالة، محمد نعيم العرقسُوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة، *ط الثامنة*، فصل العين.

القرضاوي، يوسف. (١٤١٦هـ١٩٩٦م). العقل والعلم في القرآن الكريم، القاهرة: مطبعة المدني.

القرضاوي، يوسف. (١٤٢٣هـ–٢٠٠٢م). الإيمان والحياة، القاهرة: مكتبة وهبة.

قطب، سيد. (٢٠٠١). في ظلال القرآن، القاهرة: طبعة دار الشروق،

الكيلاني، سري زيد. (١٩٩٥م). طرق تدريس علوم الشريعة في التعليم الجامعي وضرورة تطويرها، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، بيروت: دار الكتب العلمية، ب: ما جاء في الإحسان والعفو.

مجمع اللغة العربية. (٢٠٠٤). المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية.

مسلم، بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى. (١٤١٤ هـ). لسان العرب، بيروت: دار صادر، *ط: الثالثة*، فصل الهاء.

بن نبي، مالك. (١٤١٣ هـ–١٩٩٣م). موقع المسألة الثقافية في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، الطيب برغوت، الجزائر: دار الينابيع للنشر والإعلام.

بن نبي، مالك. (١٤٢٣هـ–١٩٧٩م). تأملات، دمشق: ط: دار الفكر.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني. (١٤٠٦ – ١٩٨٦). المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية *ط: ٢*، ب: التغليظ فيمن قاتل تحت راية عمية.

الهروي، محمد أبو الحسن نور الدين الملا القاري. (١٤٢٢هـ –٢٠٠٢م). مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح علي بن سلطان، بيروت: دار الفكر، ك الفتن.